

الإمام زين العابدين "علي بن الحسين" قبسات من شخصيته العلمية والأخلاقية

الأستاذ المساعد الدكتور
أحمد بهاء عبد الرزاق
جامعة الكوفة - كلية التربية للبنات
ahmed_j20052000@yahoo.com

المقدمة:

تعرضت القيم الدينية والأخلاقية في عهد الامام زين العابدين عليه السلام إلى الكثير من التحريف والتغيير على يد بنو أمية، إذ بلغ تطاولهم على أصول الحقوق الاجتماعية حداً لزم فيه سكان مركز من مراكز الاسلام الاولى والمهمة وهي المدينة المنورة - التي ترعرعت في احضانها رسالة النبي صلى الله عليه وآله - بمبايعة يزيد وقائد جيشه مسلم بن عقبة على انهم عبيد له، واضحت احكام الاسلام العوبة بيد اشخاص مثل ابن زياد والحجاج وعبد الملك بن مروان. فعندما يكون وضع الحكومة على هذه الشاكلة، يصبح من الواضح الى أي مدى سيتدنّى مستوى التربية الدينية للناس لتنبعث القيم الجاهلية من جديد.

وفي ظل هكذا ظروف اجتماعية مريرة وصعبة، شرع الامام السجاد عليه السلام بأهم عمل يهيئ من خلاله الارضية لارتباط الناس بالله بواسطة الدعاء، فملاً بعمله هذا فراغ الشخصية لدى الناس ووضع بلسم الشفاء على الجراح العميقة التي احدثها آل أمية وجلاوزتهم في كرامتهم وشخصيتهم، ووضع في متناول أيدي الناس خطأً ومنهاجاً يسرون عليه باتجاه القيم المعنوية، استطاعوا في ظله العثور على دوافع قوية للحياة والبقاء وابعاد كابوس اليأس والكآبة القاتل الذي يستولي على الناس عادة عند ازدياد الضغط والارهاب الاجتماعي، وبات الناس متأثرين بالمعنويات الرفيعة السامية للإمام السجاد عليه السلام وازداد تعلقهم بأسلوبه ومنهاجه وانخرط الكثير من طلبة العلم في سلك رواة حديثه فارتقوا من زلال علمه المنبثق من علوم رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام.

أولاً: قبسات من سيرة الامام علي بن الحسين عليه السلام:

كان الإمام زين العابدين عليه السلام من أرف الناس وأبرهم وأرحمهم بأهل بيته، وكان

لا يتميز عليهم، بل كان كأحدهم، وأثر عنه أنه قال: "لأن أدخل السوق ومعى دراهم أبتاع بها لعيالي لحماً، وقد قرموا^(١) أحب إلي من أن أعتق نسمة وكان يكر في خروجه صباحاً لطلب الرزق لعياله، فقيل له: إلى أين تذهب؟ فقال: أتصدق لعيالي من طلب الحلال، فإنه من الله عز وجل صدقة عليهم"^(٢)، وكان يعين أهله في حوائجهم البيئية، ولا يأمر أحداً منهم فيما يرجع إلى أي شأن من شؤون الخاصة، كما كان يتولى بنفسه خدمة نفسه خصوصاً فيما يرجع إلى شؤون عبادته فإنه لم يك يستعين بها أو يعهد إلى أحد في قضائها^(٣).

لقد سار الإمام في بيته سيرة لم ير الناس مثلها فقد تمثلت فيها الرحمة والتعاون والرافة، ونكران الذات. وتذكر الروايات الى ان الإمام الحسين عليه السلام كان قد عهد إلى سيدة زكية من أمهات أولاده بالقيام بحضانة ولده زين العابدين ورضاعته ورعايته، وقد عنيت به هذه المرأة الصالحة كأشد ما تكون العناية، فكانت ترعاه كما ترعى الأم الرؤوم فلذة كبدها، وقد درج الإمام في جو من الكتمان الشديد، فلم يخبره أحد بموت أمه إلا بعد أن كبر لئلا يحترق قلبه ويقلق باله^(٤)

وبعد أن كبر الإمام زين العابدين عليه السلام علم بموت أمه، وأدرك أن ما أسدته إليه هذه المربية الصالحة من ألوان البر والإحسان إنما كان خدمة له وتقرباً إلى الله، فقابل عليه السلام ذلك المعروف بكل ما تمكن عليه من أنواع الإحسان وقد بلغ من جميل بره بها أنه أمتنع أن يؤاكلها فلامه الناس، وأخذوا يسألونه بالحاح قائلين:

"أنت أبر الناس، وأوصلهم رحماً فلماذا لا تؤاكل أمك؟ فأجابهم قائلاً: أخشى أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليها^(٥) فأكون قد عققته"^(٦).

إن حياة الإمام علي بن الحسين عليه السلام وسيرته الطاهرة مليئة بمكارم الأخلاق وهي تشكل قسماً مهماً من بحر فضائله ومكارمه وجزئاً لا يتجزأ من مكنونات شخصيته، فكان الإمام عليه السلام خير دليل وأسوة للإنسان الصالح، وأفضل نموذج لكل البشرية في طريق الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فكيف لا وهي امتداد طبيعي لنهج النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام فهم كانوا كذلك، يغضون الطرف عن الذنب ويحسون إلى المذنب. وهذه من مزايا مدرسة أهل البيت عليهم السلام^(٧).

إن المتتبع لسيرة أهل البيت عليهم السلام الأخلاقية، فإن المجرم لا يطرد ولا ينفى، بل يجعل منه مؤمن صالح، حيث يسعون في هدايته بالحكمة والموعظة الحسنة ويستقبلونه بالوجه الطلق، مما يوجب هدايته إلى الطريق المستقيم والفطرة التي فطر الله الناس عليها، فسياستهم هي سياسة اللين واللاعنف والأخلاق الطيبة^(٨)، أما سياسة العصا والسيف فإنها ليست من شيمهم، فلم يقوموا بالسيف إلا للدفاع عن النفس، فإن نبي الإسلام العظيم صلى الله عليه وآله وخليفته الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لم يتدنوا بحرب مطلقاً، بل كانوا دائماً وفي كل حروبهم في حالة الدفاع عن النفس وصد هجوم الكفار والمشركين، وحتى في تلك الحروب الدفاعية كانوا يجتنبون حد الإمكان عن القتل وإراقة الدماء^(٩).

ذكروا أنه وقف على علي بن الحسين عليه السلام رجل كان له بعض القرابة من الإمام عليه السلام وشتمه، فلم يكلمه الإمام عليه السلام بسوء، فلما انصرف قال عليه السلام لجلسائه: "لقد سمعتم ما قال هذا الرجل وأنا أحب أن تبلغوا معي إليه حتى تسمعوا مني ردي عليه، فقالوا له نفع، ولقد كنا نحب أن يقول له ويقول فأخذ عليه السلام نعليه ومشى وهو يقول: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾"^(١٠).

إن كثيراً من الناس تختلف أقوالهم عن أعمالهم، فإذا كان معدماً لا يملك شيئاً، يتمنى أن لو كانت له الدنيا وما فيها ليعلم الناس، ويساعد المحتاجين والفقراء، ولكن عندما يصل إلى مبتغاه فإنه يطغى في حدود إمكاناته، هذه طبيعة البعض، أما أولياء الله والأئمة الطاهرون عليهم السلام فالهم لديهم هو رضا الله عز وجل، فإنهم يستحضرون الله دائماً ويجعلون من رضائه ملاكاً لأعمالهم، وإذا ملكوا ما ملكوا، فإنهم لا يتغيرون ولا يتبدلون بل يسعون للاستفادة منها في خدمة المحرومين والمنقطعين، والإمام زين العابدين عليه السلام من هؤلاء الأطهار فإنه على عظمته وزعامته الدينية، لم ينس حتى الموالي والعبيد، بل كان يتعامل معهم تعامل الأب العطوف، وربما تجاوزت محبته عليه السلام عطوفة الأب بالنسبة إلى أولاده^(١١).

وفي يوم من الأيام كان للإمام زين العابدين عليه السلام مجموعة من الضيوف، فأمر عليه السلام أن يعد طعامهم مقداراً من اللحم فيشوى في التنور ويؤتى به على الخوان، وعندما حل وقت الطعام، جلب أحد غلمانه جفنة اللحم المشوي إلى الخوان وكانت الجفنة شديدة الحرارة، ولشدة عجلة الغلام وقبل أن يصل إلى الخوان سقطت من يده على رأس أحد أولاد الإمام

(٥٧٨)..... الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام قبسات من شخصيته العلمية والأخلاقية

الصغار فاحترق ومات فتغير لون الغلام وأصابه الهلع وأخذ يرتجف من رهبة الجزاء، فإنه قد قتل طفلاً من أطفال الإمام عليه السلام، ومن الطبيعي أن كل أب عندما يشاهد مقتل ولده بهذه الطريقة المفجعة، أن يشد على الطرف بما يمكنه وأقله التويخ باللسان، ولكن الإمام السجاد عليه السلام لما رأى ذلك سلم أمره إلى الله تعالى وخاطب الغلام وقال: "أنت حر لوجه الله، فإنك لم تعتمد ذلك، ثم أخذ في جهاز ابنه ودفنه"^(١٢). وبالطبع أن تحرير العبد حتى وإن كان له أجر أخروي، ولكنه يضر بالمالك من الناحية المادية لأن في استطاعته بيعه والاستفادة من ثمنه.

وفي إحدى المرات نادى الإمام السجاد عليه السلام أحد غلماناه فلم يجبه، فأعاد النداء فلم يجبه، فناداه في المرة الثالثة فلم يجبه أيضاً، فقال له الإمام السجاد عليه السلام بهدوء: "يا بني ألم تسمع ندائي في المرة الأولى والثانية؟ قال: سمعت. قال عليه السلام: فلماذا لم تجبني؟ قال: لأنني أمنت عذابك. عندما سمع الإمام عليه السلام جوابه هذا عفى عنه وقال: الحمد لله الذي جعل ملوكي يأمنني"^(١٣).

وينبغي الإشارة إلى أن العبيد في ذلك الزمان لم تكن لهم أية شخصية أو أهمية في المجتمع، وكان يكفي أن يقصر في تلبية النداء حتى يعاقب عليه، وإن طريقة تعامل الإمام زين العابدين عليه السلام تتم عن نهاية عطفه ومحبه بالنسبة إلى من كان تحت يده.

ورد في الروايات الشريفة أن الذي يؤدي عائلته وخاصة زوجته وأطفاله فيغلظ عليهم في القول والأخلاق، فإنه سيعذب عذاباً أليماً في يوم القيامة، وإذا مات فستناله ضغطة القبر والعياذ بالله. وهذا أثر طبيعي ووضعي للعمل، لأن نتيجة الضغط على الأسرة في الدنيا هي ضغطة القبر في البرزخ، وفي المقابل من أكرم عائلته ووسع عليهم في الرزق وعاشهم بالمعروف وحسن الخلق، فسينال ثواب الآخرة ونعيم الجنة. قال رسول الله ﷺ: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"^(١٤).

وبذلك فقد أكد الإسلام على حفظ الأسرة وإكرام من يعوله الإنسان والسعي في خدمتهم وقضاء حوائجهم، فإن الأسرة تمثل مجتمعاً صغيراً بحد ذاتها وهي النواة للمجتمع الأكبر، فإذا صلحت صلح المجتمع وإلا فلا، ولا يكون صلاحها إلا بالمحبة والصدقة والاحترام المتقابل بين الأفراد.

الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام قبسات من شخصيته العلمية والأخلاقية (٥٧٩)

إن هذه القاعدة (قاعدة الأسرة السليمة والمتحابة) وسائر القواعد الإسلامية الأخرى يجدها المتتبع بشكل واضح ومصدق عملي جلي في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام (١٥).

وإذا ما تصفحنا تاريخ الإمام السجاد عليه السلام وسلوكه مع أفراد عائلته سنراه في القمة، فإنه مضافاً إلى كونه عليه السلام أعبد أهل زمانه وأزهدهم، فهو لا ينسى رعاية من يعوله وإكرام أسرته الشريفة، بل يأخذ بخدمتهم ويهيأ لهم وسائل الراحة المشروعة ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويربيهم على أفضل العبادات (١٦).

ورد في الكافي عن أبي حمزة الثمالي أنه قال: قال علي بن الحسين عليه السلام: "لأن أدخل السوق ومعهم دراهم ابتاع به لعيالي لحماً وقد قرموا أحب إلي من أعتق نسمة" (١٧). وقد أشار الإمام السجاد عليه السلام في هذا الحديث إلى أن ثواب شراء شيء للعيال أكثر من ثواب عتق رقبة في سبيل الله، وذلك لأن الزوجة والأولاد كل أملهم بكرم رب الأسرة وسخاوته، مضافاً إلى أن علاقتهم به لا تنفصم عراها، أما العبد إذا تحرر فان علاقه بمالكه تنفصم ويتخذ قراراته بنفسه.

يحدثنا الإمام الصادق عليه السلام ويقول: "كان علي بن الحسين عليه السلام لا يسافر إلا مع رفقة لا يعرفونه ويشترط عليهم أن يكون من خدام الرفقة فيما يحتاجون إليه، فسافر مرة مع قوم فرآه رجل فعرفه، فقال لهم: أتدرون من هذا؟ فقالوا: لا، قال: هذا علي بن الحسين عليه السلام. فوثبوا إليه فقبلوا يده ورجليه، وقالوا: يا ابن رسول الله أردت أن تصلينا نار جهنم لو بدرت إليك منا يد أو لسان أما كنا قد هلكنا إلى آخر الدهر، فما الذي يحملك على هذا. فقال: إني كنت سافرت مرة مع قوم يعرفونني فأعطوني برسول الله صلى الله عليه وآله ما لا أستحق فإني أخاف أن تعطوني مثل ذلك فصار كتمان أمري أحب إلي" (١٨)، وهكذا أراد أن يخفي الإمام عليه السلام أمره تواضعاً فأبى الله إلا أن يظهره ويرفعه. وأما مشيته عليه السلام فكانت السكينة والوقار فلا طيش ولا خفة ولا شموخ بالأنف، لأن الإنسان مهما بالغ في مشيته فسوف لن يخرق الأرض ولا يبلغ الجبال طولاً، قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: "كان علي بن الحسين (صلوات الله عليه) يمشي مشية كأن على رأسه الطير لا يسبق يمينه شماله" (١٩).

إن الإسلام قد حدد جميع الموازين الدقيقة للموضوعات والأحكام في حياة الإنسان

مع نفسه والآخرين، بحيث لا يكون إفراط ولا تفريط، والميزان لمعرفة ذلك هو رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار ؑ بأقوالهم وأفعالهم وسيرتهم العطرة، فقد تجلت كافة الجوانب الأخلاقية والآداب الإسلامية وموازنين الشرع المقدس في شخصية نبي الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ وابنته سيدة نساء العالمين الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء ؑ والأئمة الطاهرين من أنبائها ؑ، كما ورد في الزيارات: "السلام على ميزان الأعمال" (٢٠).

فكان الإمام زين العابدين ؑ زاهداً في الدنيا، بل كان في قمة الزهد والتقوى، فكان لا يهتم باللذائذ الحسية والحاجات البدنية، ولكن مع ذلك كله لم يكن ينسى احتياجات الجسم في صحته وعافيته، لأن الإسلام يعتبر سلامة الجسم من عوامل التقوى والورع، ويقول أمير المؤمنين ؑ: "ألا وإن من صحة البدن تقوى القلب" (٢١) فكان الإمام زين العابدين ؑ يتمتع بصحة كاملة ويهتم بآداب النظافة وسنتها. فقد كان يخرج إلى المسجد وقد استاك أسنانه وعطر نفسه بأفضل عطر مما يسمى بالمسك والغالية (٢٢).

ثانياً: الإمام علي بن الحسين ؑ قبسات من عبادته وخشوعه:

كان الإمام زين العابدين ؑ قمة في العبادة والخضوع والخشوع أمام الله عز وجل، حتى لقب بزين العابدين وسيد الساجدين. فكان ؑ قد اصفر لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته وانخرم أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة، وكان ؑ إذا تواضاً للصلاة يصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء، فيقول ؑ: "أندرون بين يدي من أريد أن أقوم" (٢٣) وإذا قام إلى الصلاة أخذته الرعدة، لذلك فإن من أشهر ألقاب الإمام علي بن الحسين (عليهما السلام) السجاد وذو الثغفات. فالسجاد على وزن فعال تعني كثرة السجود لأنه كان يقضي معظم أوقاته في الصلاة التي قال عنها جده النبي المصطفى ﷺ إنها قرّة عينه. وأما تسميته بذو الثغفات، كما جاء في الكافي للكليني، إن الإمام الباقر ؑ قال: "كان لأبي في موضع سجوده آثار ثابتة يقطعها في كل سنة من طول سجوده وكثرته. وفي رواية الصدوق أنه كان يقطعها ويجمها وأوصى أن تدفن معه في قبره" (٢٤).

وعن خشوعه وتقاه. قال أبو عبد الله ﷺ: "كان أبي يقول: كان علي بن الحسين صلوات الله عليهما إذا قام في الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه شيء إلا حركه الريح

منه)، ومن نظر إليه وهو يصلي يخاله شبيهاً بأبيه الإمام الحسين عليه السلام ويجديه علي بن أبي طالب والنبي محمد الرسول الأكرم عليه السلام (٢٥). قال أبو حمزة الثمالي: (رأيت علي بن الحسين عليه السلام يصلي فسقط رداؤه عن أحد منكبه، قال: فلم يسوّه حتى فرغ من صلاته قال: فسألته عن ذلك. فقال: ويحك أتدري بين يدي من كنت؟ إن العبد لا يقبل من صلاته إلا ما أقبل عليه منها بقلبه" (٢٦).

يقول الإمام الباقر عليه السلام: "كان علي بن الحسين يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة وكانت الريح تميله بمنزلة السنبلة، وكانت له خمسمائة نخلة وكان يصلي عند كل نخلة ركعتين، وكان إذا قام في صلاته غشي لونه لون آخر، وقيامه في صلاته قيام عبد ذليل بين يدي الملك الجليل، كانت أعضاؤه ترتعد من خشية الله، وكان يصلي صلاة مودع يرى أنه لا يصلي بعدها أبداً" (٢٧).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: "ولقد دخل أبو جعفر على أبيه عليه السلام فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد وقد اصفر لونه من السهر ورمضت عيناه من البكاء ودبرت جبهته من السجود وورمت قدماه من القيام في الصلاة. قال: فقال أبو جعفر: فلم أملك حين رأيته بتلك الحال من البكاء فبكيت رحمة له وإذا هو يفكر فالتفت إلى هنية من دخولي فقال: يا بني أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي (أمير المؤمنين) فأعطيته فقرأ فيها سيراً ثم تركها من يده تضجراً وقال: من يقوى على عبادة علي بن أبي طالب" (٢٨).

ولما شاهدته عمته فاطمة بنت علي بن أبي طالب ما ناء به من الجهد في العبادة خافت عليه من أذية نفسه وهلاكها وهو بقية السلف وحمى الأمن ومعقد الآمال ومفرع المستجير فأتت جابر بن عبد الله الأنصاري، وهو خاصتهم وصاحب جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله. فلعله يستطيع أن يخفف العناء والجهد عن الإمام السجاد، فقالت له: "يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله إن لنا عليكم حقوقاً ومن حقنا عليكم أن إذا رأيتم أحداً يهلك نفسه اجتهداً تذكرونه الله تعالى وتدعونه إلى البقاء على نفسه، وهذا علي بن الحسين قد انخرم أنفه وثقنت جبهته وركبته وراحته إذ آبا منه لنفسه في العبادة" (٢٩).

إن الإمام زين العابدين ليس بحاجة إلى الإطراء بكثرة صلاته في اليوم والليلة ألف ركعة (٣٠)، ولا بمتابعة صيامه الذي قالت عنه مولاته: (ما فرشت له فراشاً بليل قط ولا أتيته

بطعام في نهار قط^(٣١). وإنما ما يجب معرفته أنه عليه السلام كان يقوم بهذه الأعمال العبادية بحق اليقين سواء من ناحية النية المقصورة على تأهل المولى سبحانه للعبادة، لا من الخوف أو الرجاء كما سلف مثله عن جده أمير المؤمنين وسيد التقيين عليه السلام الذي يقول: (إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك)^(٣٢).

فالإمام السجاد يعبد الله تعالى كما يعبداه أهل بيته كأنه يراه، ويخافه كأنه ينظر إليه وجلال المهيمن وعظمته متجلية لديه في كل الأحوال. فلا غرو إذا ما تحدث به الرواة من الرهبة والخشية التي تلفه عند المثلول أمام المولى عز شأنه لأداء فريضة الصلاة فتضطرب أعضاؤه ويصفر لونه ولا يتحرك منه شيء إلا ما حركه الريح^(٣٣).

تشير الروايات الى انه في احد الايام وقع حريق والنار في بيت الإمام زين العابدين عليه السلام، وكان ساجداً في صلاته، فجعلوا يقولون له: يا ابن رسول الله، يا ابن رسول الله، النار النار، فما رفع رأسه من سجود حتى أطفئت، ف قيل له: ما الذي ألهاك عنها، فقال: "نار الآخرة"^(٣٤)، وكان عليه السلام يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة، فإذا أصبح سقط مغشياً عليه، وكانت الريح تميله كالسنبل^(٣٥). وعن زرارة بن أعين قال: سمع قائل في جوف الليل وهو يقول: أين الزاهدون في الدنيا، الراغبون في الآخرة، فهتف هاتف من ناحية البقيع يسمع صوته ولا يرى شخصه ذاك علي بن الحسين^(٣٦).

اما صيامه عليه السلام فمن المعروف ان الصيام من أقوى الوسائل في رياضة النفس وتقوية الإرادة وتعويد النفس على الصبر. ونوجز القول بأنه هو الرمز العملي بضبط النفس في دين الله. لذلك كان من أركان الدين الإسلامي وطريقاً من طرق الوصول إلى حقيقة التقوى التي هي التعبير العملي عن أخذ المسلم نفسه بالإسلام. قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣٧)، والإمام زين العابدين كان شديد الاجتهاد في العبادة، نهاره صائم وليله قائم. قال الإمام الصادق عليه السلام: "كان علي بن الحسين شديد الاجتهاد في العبادة، نهاره صائم وليله قائم، فأضر ذلك بجسمه فقلت له: يا أباكم هذا الدؤوب فقال: أحبب إلى ربي لعله يزلفني"^(٣٨) وأثناء صيامه كان كريماً جداً كثير الصدقات.

قال الإمام الصادق عليه السلام: "إنه كان علي بن الحسين إذا كان اليوم الذي يصوم فيه يأمر بشاة فتذبح وتقطع أعضاؤها وتطبخ فإذا كان عند المساء أكب على القدر حتى يجد ريح المرققة وهو صائم ثم يقول: هاتوا القصاع، أغرفوا لآل فلان حتى يأتي إلى آخر القدر، ثم يؤتى بخبز وتمر فيكون بذلك عشاؤه" (٣٩).

ثالثاً: مكانة الامام علي بن الحسين عليه السلام الاجتماعية "قبسات من اخلاقه - فضائله - مناقبه":

إن أخلاق الإمام السجاد من أخلاق أبيه الإمام الحسين وأخلاق جديه الإمام علي بن أبي طالب، أمير المؤمنين وإمام المتقين، ومحمد بن عبد الله خاتم النبيين الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، فجده الإمام علي عليه السلام عفا عن مروان الذي قاد الجيوش لحربه في البصرة فبعد أن ظفر به ووقع أسيراً في قبضته تركه وأطلق سراحه مع علمه بأنه سينضم إلى معاوية ويحاربه في صفين وبعد أن استتب الأمر لمعاوية واختاره والياً على المدينة كان يؤدي الإمام الحسن عليه السلام وكانت مجزرة كربلاء من أغلى أمانيه. ومع كل هذه السيئات وهذه الإساءات عفا عنه بعد أن وقع في قبضة يده. ثم قال حكيمته: (إذا ظفرت بعدوك فليكن العفو أحلى الظفرين) (٤٠).

وجده الأكرم رسول الله صلى الله عليه وآله عفا عن رأس الشرك أبي سفيان بعد أن ظفر به، كما عفا عن زوجته هند بنت عتبة وأحسن إليها بعد عملها الشنيع، عندما شقت بطن الحمزة البطل المؤمن الصنديد واستخرجت كبده ونهشتها بأسنانها وحملتها إلى مكة تتشفى بالنظر إليها، وعفا صلى الله عليه وآله أيضاً عن والد مروان الحكم عندما ظفر به في مكة وقد كان يؤذيه ويسيء إليه بشتى أنواع الإساءة، وبعد أن أظهر الإسلام بعد فتح مكة كان يستهزئ به ويفتري عليه لكن النبي صلى الله عليه وآله اكتفى بنفيه مع ولده إلى الطائف كما عفا عن جميع مشركي مكة وجبارتهم الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية المباركة، وعن كل من كان يسيء إليه وقال عندها كلمته المشهورة: (إذهبوا فأنتم الطلقاء) (٤١) فليس غريباً إذا أحسن الإمام زين العابدين لمن أساء إليه، فهو من سلالة أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

كان الامام علي بن الحسين عليه السلام ثقة مأموناً، كثير الحديث، عالياً، ربيعاً، ورعاً، وروى الشيخ الصدوق قال: قلت لمحمد بن شهاب الزهري: لقيت علي بن الحسين؟ قال: نعم لقيته وما لقيت أحداً أفضل منه والله ما علمت له صديقاً في السر ولا عدواً في العلانية، فقليل له:

وكيف ذلك، فقال لأنني لم أر أحداً وإن كان يحبه إلا وهو لشدة معرفته بفضلته يحسده، ولا رأيت أحداً وإن كان يبغضه إلا وهو لشدة مداراته له يداريه^(٤٢).

وكان الإمام السجاد يقدر العلم والعلماء سواء أكان أحدهم رفيعاً في أعين الناس أم كان غير رفيع ما دام عنده علم ينتفع به الناس، وإذا دخل المسجد يتخطى الناس حتى يجلس إلى جانب رجل متواضع اسمه زيد بن أسلم، فقال له نافع بن جببر عاتباً: غفر الله لك أنت سيد الناس تتخطى خلق الله وأهل العلم وقرشاً حتى تجلس مع هذا العبد الأسود، فقال له الإمام عليه السلام: (العلم يقصد حيث كان) وكأنه يقصد إلى الحكمة القائلة: (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها) والإنسان في أي زمان لا يهمله القائل بقدر ما يهمله القول الصادر عن أي لسان^(٤٣).

روى الكليني في الكافي قال: (ما تجرعت جرعة أحب إلي من جرعة غيظ لا أكافئ بها صاحبها، ووقف عليه رجل من بني عمومته فاسمعه كلاماً مرأً وشتمه، فلم يكلمه، فلما انصرف قال لجلسائه: قد سمعتم ما قال هذا الرجل، وأنا أحب أن تبلغوا معي حتى تسمعوا ردي عليه، فمضوا معه وهو يقول: والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين. فخرج الرجل متوثباً للشر وهو لا يشك أنه إنما جاءه مكافياً له على بعض ما كان منه، فقال له الإمام زين العابدين: يا أخي إنك كنت قد وقفت علي أنفاً وقلت ما قلت فإن كنت قد قلت ما في فأنا أستغفر الله منه، وإن كنت قد قلت ما ليس في فغفر الله لك، فأقبل عليه الرجل معتذراً وقال: لقد قلت ما ليس فيك وأنا أحق به^(٤٤).

ويروي عنه الرواة الكثير عن حلمه وسماحته منها: إن جارية له كانت تحمل إبريقاً وتسكب الماء لوضوئه فسقط من يدها على وجهه فشجه وسال دمه فرفع رأسه إليها لاثماً، فقالت له الجارية: إن الله يقول: والكاظمين الغيظ، فقال: قد كظمت غيظي. فقالت: والعافين عن الناس، فقال: عفا الله عنك، فقالت: والله يحب المحسنين، فقال: أنت حرة لوجه الله^(٤٥).

وعن كرمه عليه السلام روى الواقدي قال: "إن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد المخزومي كان والياً على المدينة لعبد الملك بن مروان وقد أساء جوار الإمام ولحقه منه أذى شديد، فلما توفي عبد الملك عزله الوليد بن عبد الملك وأوقفه للناس لكي يقتصوا منه،

فقال: والله إنني لا أخاف لا من علي بن الحسين، فمر عليه الإمام وسلم عليه وأمر خاصته أن لا يتعرض له أحد بسوء، وأرسل له: إن كان أعجزك مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك ويسد حاجتك فطب نفساً منا ومن كل من يطيعنا فقال له هشام بن إسماعيل: الله أعلم حيث يجعل رسالته" (٤٦).

هكذا كان يعامل الإمام السجاد خصومه، يعاملهم حسب ما تملي عليه أخلاقه العالية وصفاته النبيلة ومناقبه الكريمة. من ذلك ما صنعه مع مروان بن الحكم ألد أعداء أهل البيت وهو الذي أشار على الوليد بقتل الإمام الحسين عليه السلام سيد الشهداء، وبقي إلى جانب معاوية يتبع أهل البيت بالإساءة والأذى وينكل بهم ويشيعتهم بكل ما لديه من وسائل خيثة (٤٧). ومع كل ذلك فقد صنع معه كما صنع مع هشام بن إسماعيل وبالغ بالإحسان إليه كما بالغ هو بالإساءة إليه. وذلك يوم ثار أهل المدينة على الأمويين وضيّقوا عليهم ولم يعد لهم ملجأ بها فضاقت الأمور بمروان بن الحكم إلى أبعد حد، مما دعاه إلى استعطاف أبناء المهاجرين والأنصار لأنه لم يجد من يحمي له عيال الأمويين ونسأؤهم ويمنع عنهم الثائرون المتربصين الشر بهم في كل حين غير الإمام علي بن الحسين عليه السلام الذي ضم عيال مروان إلى عياله وعاملهم بما كان يعامل به أسرته وعياله (٤٨).

فإذا كان ذلك غريباً وبعيداً عن أخلاق الناس العاديين وطبائعهم فليس بغريب ولا بعيد على من اختارهم الله وخصهم بالكرامة والعصمة وجعلهم فوق مستوى البشر في مواهبهم وأخلاقهم وجميع صفاتهم وأعمالهم.

أما عن كرمه عليه السلام فالروايات كثيرة لا تحصى نذكر بعضاً منها. روى الصدوق عن سفيان بن عيينة أن محمد بن شهاب الزهري رأى علي بن الحسين عليه السلام في ليلة باردة وعلى ظهره دقيق يسعى به إلى جماعة. فقال له: "يا بن رسول الله ما هذا؟ أجابه: أريد سफراً أعدوت له زاداً أحمله إلى موضع حريز، قال: فهذا غلامي يحملني عنك، فأبى عليه الإمام عليه السلام فقال: دعني أحمله عنك فإني أرفعك عن حمله. فقال عليه السلام: لكني لا أرفع نفسي عما ينجنيني من سفري ويحسن ورودي على ما أرد عليه أسألك بحق الله لما مضيت لحاجتك وتركتني. فلما كان بعد أيام لقيه ابن شهاب وقال: يا بن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً، قال عليه السلام: بلى يا زهري ليس هو كما ظننت ولكنه الموت وله استعداد، إنما

الاستعداد للموت تجنب الحرام وبذل الندى في الخير" (٤٩).

وروى ابن طاووس عن الإمام الصادق عليه السلام إن علي بن الحسين إذا دخل شهر رمضان لا يضرب عبداً له ولا أمة وإذا أذن عبداً له أو أمة يسجل ذلك عليهم، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان دعاهم وجمعهم حوله ثم يعرض عليهم سيئاتهم فيعترفون بها، ثم يقف بينهم ويقول: "ربنا إنك أمرتنا أن نعفو عن ظلمنا وقد عفونا كما أمرت فاعف عنا فإنك أولى بذلك منا ومن المأمورين ثم يقبل عليهم ويقول: لقد أعثت رقابكم طمعاً في عفو الله وعق رقبتني من النار. فإذا كان يوم العيد أجازهم بجوائز تصونهم وتغنيهم عما في أيدي الناس" (٥٠).

الخاتمة:

كان الإمام زين العابدين غصناً من أغصان هذه الشجرة النبوية العظيمة والمورقة دائماً والملقية بظلالها على رؤوس الخلق إلى أبد الأبد، وقد كانت أخلاقه الطيبة مدرسة للأجيال، ويتحتم بنا هنا استعراض بعض النماذج من سلوكه الطاهر.

إن سيرة الرسول الأعظم ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام وتعاملهم مع الناس هي المثل الأعلى في كافة ميادين الحياة الاجتماعية، فإنهم القدوة في جهم وعظفهم وفي رأفتهم حتى بعدوهم وفي أخلاقهم وحسن معاشرتهم وقد جعلهم الله تعالى الأسوة الحسنة حيث أمرنا جل جلاله باتباعهم والسير على هداهم.

فمن أراد الله والنجاة في يوم القيامة فعليه باتخاذ هؤلاء الأطهار عليهم السلام قدوة ومثلاً أعلى له في الحياة الدنيا وذلك لأنهم سفن النجاة التي من ركبها نجي ومن تخلف عنها غرق وهوى، وقد كان الإمام السجاد عليه السلام في سلوكه وتعامله مع الآخرين نموذجاً في الأخلاق الإسلامية وكان عليه السلام محط إعجاب الناس وتعلقهم بالرسول ﷺ والرسالة.

أجمع المؤرخون على أن الإمام زين العابدين قد انصرف إلى العبادة والعلم والدراسة والتعليم لأنه وجد في ذلك غذاء لروحه وسلوة لقلبه وأنساً لنفسه. وإلى جانب انصرافه إلى نشر العلم والفقه كان رحيماً بالناس وجواداً سخياً وخلوقاً حليماً كان يتجرع قسوة الكلام من سبٍ وشتمٍ وغيرها من صنوف العذاب.

هوامش البحث ومصادره

- (١) قرموا: أي أشد شوقهم إلى اللحم.
- (٢) المجلسي: بحار الانوار، ج ٤٦، ص ٦٧.
- (٣) المصدر نفسه والصفحة
- (٤) عبد الرزاق الموسوي المرقم: الإمام زين العابدين، ص ١٩
- (٥) الحنبلي: شذرات الذهب ج ١، ص ١٠٥؛ المبرد: الكامل، ج ١، ص ٣٠٢.
- (٦) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج ٣، ص ٩٧.
- (٧) الاربلي: كشف الغمة في معرفة الاثمة: ج ٢، ص ٨١.
- (٨) المصدر نفسه والجزء والصفحة.
- (٩) الشيخ الصدوق: الخصال، ج ٢، ص ١٠١.
- (١٠) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
- (١١) الشيخ المفيد: الإرشاد، ج ٢، ص ١٤٦-١٤٧.
- (١٢) الاربلي: كشف الغمة: ج ٢، ص ٨١.
- (١٣) المصدر نفسه والصفحة
- (١٤) احمد بن حنبل: الزهد: ص ٨٧.
- (١٥) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.
- (١٦) الطبرسي: مكارم الأخلاق، ص ٢١٧.
- (١٧) الكليني: الكافي، ج ٤، ص ١٢.
- (١٨) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٣٠.
- (١٩) المحدث النوري: مستدرک الوسائل: ج ٨، ص ٢٣٩.
- (٢٠) المجلسي: بحار الانوار ج ٩٧، ص ٢٨٧.
- (٢١) نهج البلاغة، قصار الحكم، ص ٣٨٨.
- (٢٢) الكليني: الكافي، ج ٦، ص ٥١٥.
- (٢٣) الاربلي: كشف الغمة: ج ٢، ص ٧٤.
- (٢٤) المصدر نفسه، ص ٧٥.
- (٢٥) الشيخ الصدوق: الامالي، ص ١٦٧-١٦٨.
- (٢٦) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج ١، ص ٢٣١.
- (٢٧) ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٤، ص ١٥٠.
- (٢٨) المصدر نفسه والصفحة.
- (٢٩) الشيخ الطوسي: الأمالي، ص ٤٧.

- (٣٠) الشيخ الصدوق: الخصال، ج ٢، ص ١٠١.
- (٣١) الشيخ الصدوق: علل الشرائع، ص ٨٨.
- (٣٢) المصدر نفسه
- (٣٣) الكليني: الكافي، ج ٣، ص ١١٩.
- (٣٤) المجلسي: بحار الانوار، ج ١١، ص ١٩.
- (٣٥) الاربلي: كشف الغمة: ج ٢، ص ٨١.
- (٣٦) الحلبي: العدد القوية، ص ٦٤.
- (٣٧) سورة البقرة: الآية ١٨٣.
- (٣٨) ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٤، ص ١٥٥.
- (٣٩) المصدر نفسه.
- (٤٠) عبد الرزاق الموسوي المرقم: الإمام زين العابدين، ص ٣٤.
- (٤١) المصدر نفسه والصفحة.
- (٤٢) الشيخ الصدوق: علل الشرائع، ص ٢٣٢.
- (٤٣) ابن شهر آشوب: المناقب، ج ٤، ص ١٣٦.
- (٤٤) المجلسي: بحار الانوار، ج ٤٦، ص ١٧.
- (٤٥) المجلسي: بحار الانوار، ج ١، ص ١٨؛ الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٠٣.
- (٤٦) الطبرسي: مكارم الأخلاق، ص ١٩٨.
- (٤٧) المصدر نفسه، ص ١٩٩.
- (٤٨) الكليني: الكافي ج ٢ ص ٨١.
- (٤٩) الشيخ الصدوق: الأمالي، ص ١٦٧-١٦٨.
- (٥٠) المجلسي: بحار الانوار: ج ٤٦، ص ٩٨.